النجاح فى القرن العشرين

لأديب مجهول

فى قطعة تعد من أجمل نماذج النثر الانجليزى يصف الأستاذ السير جيمس فريزر العادة الغريبة التى كانت متبعة فى تولية القسس الحاكمين بغاب ديانا القريب من موقع مدينة لارتشيا الحالية بإيطاليا : « فمن يوم إلى يوم ، ومن عام إلى عام ، فى الحر وفى البرد ، وفى الصحو وفى المطر ، يخرج القسيس من المعبد حذرا يترقب ويجوب الغابة ، والسيف مشهور فى يده ، وإن أغفى إغفاءة فقد يكون ثمنها حياته ويتولى من قتله الحكم مكانه . »

ذلك نوع من النجاح بعد به عنا الزمن ، وأنكرته المدنية حتى فى عهدها القديم (فإنى أذكر وأنا أكتب الآن أن الامبراطور كراكرا كان هو الذى أبطل قانون الغابة الذى سلف وصفه) لما تنطوى عليه فكرته من تغليب محض القوة أو الخديعة على كل اعتبار آخر وإباحة التخلص من وجود المنافس كلية بقتله ، وقد يكون المقتول أنفع لقومه من القاتل ، فضلا عن أن لا حياة لمجتمع ما إلا بالتواضع على حد أدنى من الأمن على النفس والمال وما يتصل بهاتين الغايتين من أفكار أدبية ونظم قانونية

وما زالت معايير النجاح تتغير تبعاً لاختلاف الجماعات والعصور حتى أتى هذا القرن وأوضح صفاته وصول التنافس الاقتصادى فيه إلى أشده سواء بين الأفراد أو الأمم ، وفى هذه الحالة مافيها من خطر على المدنية يكاد يرجع بها إلى عهد التناحر الأول ، وما استمرار الحرب الهجومية إلى هذا الوقت إلا نذير بما تستهدف له العلاقات الدولية من عودة الإنسان فيها إلى حكم غرائزه البحتة

نترك هذا الجانب الدولى من الموضوع ، فليس هو المقصود ببحثنا الآن فضلا عن مساسه بمسائل هى أدق بكثير مما يتناوله البحث فى تنافس الأفراد

والآن فما مقياس النجاح فى عصر الاقتصاد ؟ إن أسهل جواب على ذلك القول بأنه هو النجاح المشتق من روح العصر . أى النجاح فى الماديات ، وأسهل جواب ليس هو دائما فصل الخطاب ، بل إن الأمر ليحتاج لنظر أدق وتفكير كثير ، فقد كان التنافس فى الماضى نضالا بين اثنين أو أكثر يفوز فيه أحسنهم مواهب أو فرصا ، فتحول الآن إلى جهاد للتخلص مما أحاط به هذا العصر بنيه من صعوبات نشأت عن انتشار الديموقراطية من جانب وزيادة السكان من الجانب الآخر . وأكبر أخطار الديموقراطية هو مانحاول نشره يوميا (خصوصا بالسينما والراديو) من فرص للمساواة المزعومة بين الناس مما يسهل انعدام شخصية الفرد فى آلاف يراهم مثله . وأكبر أخطار زيادة السكان هو الفقر والعطلة ، فالتحول بالأخلاق من ينابيعها الأدبية والروحية إلى غرائز الاجرام الحيوانية الكامنة هى أيضا فى الطبيعة البشرية

ولا ريب فى أن الناشىء فى هذا القرن يقاسى من هذه الصعوبات مالا عهد للسابقين به ، ويتعرض من أخطاره لما لم يعرفه غيره ممن قبله ، غير أنه لا ريب كذلك فى أن إطلاق مبادىء النجاح المادى من عقالها وترك النضال القديم الذى يعترف بحدود من الأخلاق والدين إنما هو فى الواقع هروب من الجهاد الصحيح إلى عراك آخر رخيص يبيح الصعود بالهبوط والوصول لنعيم الجسم بفقدان الروح ، ولضخامة الكسب بموت الضمير

وسيكون اختيار الناس لهذا النوع أو ذاك من النضال تبع فهم كل منهم معنى الكرامة والحياة ، ولا فائدة على أى حال من خطاب من فسدت مقاييسه أو خبث طبعه ، ولكن الذى لابد من بيانه فى هذا الصدد أن النجاح برغم كل ماتقدم من وصف صعابه لا يستلزم تغيراً فى كيف السعى بل فى كمه : وبعبارة أخرى هو يستلزم زيادة فى الجهد لا ما يدعو إليه المستهترون بالاجتماع السليم من اطراح ماقامت عليه المدنيات من قواعد الشرف والآداب

فاذا تبين أن سبيل النجاح الآن لا يخرج عما كان فى كل آن من أنه طلب التقدم بكل وسيلة شريفة بقى أن نبحث عن أهم شروط هذا الطلب فلا نجد غير إرادة النجاح ، والارادة هى إرادة الوسائل وعقد النية على العمل بها لا الارادة الجوفاء الشبيهة بالأحلام

وباعتبار ما تقدم القول عنه من امتياز هذا القرن بشدة التنافس الاقتصادى فيه يجب أن نضيف إلى شرط الارادة شرطاً آخر هو القدرة على إنزال المال منزلته الصحيحة من أنه وسيلة للحياة المادية ، وأنه هو والحياة المادية نفسها يجب أن يتخذا وسيلة لأن يحيا المرء حياته الروحية التى هو جدير بها . فاذا عمل عامل بهذه العقلية وتلك الارادة فداوم على تهذيب نفسه مع السعى لترقية حاله وحافظ على شخصيته فى كل الظروف فهذا هو الفضل وهو النجاح . (٥٥٥)